

روح مصر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

دع من شاء يتفنى بفرنسا وما في فرنسا، ودع من شاء يتفنى
بإنجلترا وما في إنجلترا؛ دع هؤلاء جميعاً ينفون مصر وما
في مصر وينكرون ماضيها، فما نحن منهم في شيء. وليس في
الأمر علينا من مضاضة إلا ألم الساعة نشعر به كلما وقعت أعيننا
عفوياً أو قصداً على كلمة لبعض هؤلاء؛ حتى إذا مررت الساعة لم
يبق من أثر لكلمتهم إلا كما يبقى من أثر قول الولد العاق
في نفوس أهله، فإن الحب يقلب الكراهة، وسعة صدر الوالد
لا يدوم معها الغل ولا تبقى عليها الحفيظة. ثم لن تكون إلا
أعوام فتتضح العقول الفجة، ويتسع الأفق الضيق، وينزر المحيط
الضحل، فيعود هؤلاء جميعاً إلى تقديس مصر ومعرفة روحها،
وإعطائها ما يجب لها من الاجلال.

وأما نحن فما بنا والله الحمد غير مصر وحب مصر، والاعجاب
بها والاشفاق عليها: نمجب بما فيها من جليل، ونشفق على ما بها
من عليل أو ضعيف. ليس في القلب نحوها موضع لغير عاطفتي
الحب والاشفاق. هذه كلمة نفرج بها عن النفس بما تحسه، إذ
كثر في هذه الأيام حديث الزرابة بمصر من قوم لا نجد في نفوسنا
ميلاً إلا للدناء لهم بالتوفيق إلى ما هو خير من ذلك وأكرم.

ولنعد إلى الماضي نقلب فيه صفحة من صفحات تاريخ مصر،
لنرى أن روحها كان أبداً روح الكريم الأبى، ولو علا تلك
الصفحة صدأ القدم، أو غشاء الوهم.

لاحاجة بنا إلى أن نمود إلى أيام الفراعنة، أو إلى أيام مجد الدول
الإسلامية التي كان فيها لمصر ذلك الروح المتوثب القوى، بل نمود
إلى أيام القرن الثامن عشر الذي يصفه بعض المؤرخين بالظلمة
والأنحطاط، ولم يتورعوا أن يتهموه بأقسى التهم وأشنعها، وتمدوا
فيه الوصف الشنيع إلى السب المقذع حتى في التسمية، فلا يعرفونه
إلا باسم «عصر المالك» كأننا بهم يعيرون حكاهم بأنهم كانوا
في أول أمرهم يشترون بالمال. وأنا إذا عدنا إلى ذلك العصر لم نجد

روح مصر خفياً، بل نراه واضحاً مجلواً على عهد من الكرم والآباء:
لئن كان حكام مصر الأسبقون يشترون في أول حياتهم بالمال،
فقد كانوا رجالاً حماة ظلماً ذادوا عن حوض مصر، وحما
ذمارها. ولقد كانوا يفاخرون بمصريتهم ويبتزون بها، ويسمون
أنفسهم منسيين إليها، فكانوا يعرفون أنفسهم باسم «الأمراء
المصريون» وما أجدرنا نحن اليوم أن نسميهم بذلك الاسم
وتجنب تلك التسمية الجائرة التي ردها من قبل أعداء مصر
ظلماً منهم وعدواناً. فلقد ألصقت بهم هذه التسمية منذ أطلاقها
عليهم فرنجة الحملة الفرنسية الذين جاءوا إلى مصر ليترعوها من
أيديهم ويحلوا محلهم في حكم البلاد، فكانوا يحاولون في كل
مناسبة أن يشهروا بهم ويحملوا عليهم، بقية أن يفعدوا عليهم
قلوب أهل مصر. ولهذا حبب إليهم أن يسموهم باسم «المالك»
وأن ينتموهم بأشنع النعوت، وتهموهم بأشنع التهم.

أما نحن فما أحرانا أن ننظر لأنفسنا بأعين مجردة عن الهوى،
وأن ننظر إلى صفحة تاريخهم بغير حقد ولا كراهة، فما كانوا بأهل
لذلك، وما كان حكمهم إلا كسائر حكم الدول التي تعاقبت على مصر
في مختلف المصور. فلقد تعاقب في عهدهم حكم العدل والظلم،
واختلف في زمانهم زهو النصر، وذلة القهر — وأى عصر في
التاريخ قد خلا من مثل هذا التقلب والاختلاف؟ وكان شعب
مصر في مدتهم وزن البولة، فيرى ما فيها من حسنة وسيئة، فاذا
رأى الحسنة غالبية، غفر السيئة في سبيلها، وهو في ذلك مثل
سائر الشعوب التمدنية المستقرة، لا تستخفه الحوادث إلى الصف
ضناً بالسلام والطأنينة،

غير أن ذلك الشعب الوديع كان يرى أحياناً من الحكام من
لا يستحق عطفه ولا إجلاله، فكان عند ذلك يرفض الأبتداء
باباء العازم على عدم الاستكانة. وما أكثر الآيات الدالة على هذا
لمن أراد النظر لنفسه، ومن لم يتلق وحيه عن أساطير الكارهين
الكاشحين.

ولى أمر الحكم في مصر في أواخر القرن الثامن عشر أميران
من أضعف من ولى أمر الحكم فيها، وهما مراد وإبراهيم. فكان
حكماهما في مصر أشبه شيء بالمرض يعترى جسم الشاب الناشئ؛
وتهدم في أيامهما ما بنىه أكارب الأمراء السابقين قبلهم منذ أيام
إبراهيم ورضوان، ومن جاء بعدهما مثل علي بك الكبير ومحمد بك

بالتهوبات ونأتى بها من عمل ماتكون) وانفقوا على ذلك وقرأوا
الفاتحة وانصرفوا، وركب الشيخ في صباحها الى ابراهيم بك
وأرسل الى حسين بك فأحضره بالمجلس وكله في ذلك . . . »

ولم يقف الأمر عند حدود القاهرة، بل اشترك أهل الأقاليم
في ذلك، فلم تمض السنة نفسها حتى تحركت مدينة طنطا في أيام
مولد ولها المشهور السيد البدوي، وكان الشيخ الدردير على
رأس الحركة هذه المرة أيضاً .

قال صاحب تاريخ « عجائب الآثار » :

« فذهبوا (أى أهل طنطا) الى الشيخ الدردير، وكان هناك
بقصد الزيارة، وشكوا اليه ما حل بهم، فأمر الشيخ بعض أتباعه
بالذهاب الى (الكاشف الظالم) فامتنع الجماعة من مخاطبة ذلك
الكاشف، فركب الشيخ بنفسه وتبعه جماعة كثيرة من العامة،
فلما وصل الى خيمة كتبخدا الكاشف دعاه فحضر اليه والشيخ
راكب على بقلته، فكلمه ووبخه وقال له: (أنتم ماتخافون من الله)
ففي أثناء كلام الشيخ لكتبخدا الكاشف هجم على الكتبخدا
رجل من عامة الناس وضربه بنبوت، فلما عين خدامه ضرب
سيدهم هجموا على العامة بنبايتهم وعصيم، وقبضوا على السيد
أحمد الضاني تابع الشيخ وضربوه عدة نبايت، وهاجت الناس
على بعضهم، ووقع النهب في الخيم وفي البلد، فهبت عدة
دكاكين، وأسرع الشيخ بالرجوع الى محله . . . ثم حضر
كاشف التوفية وهو من جماعة ابراهيم بك الكبير وحضر الى
كاشف القرية وأخذه وحضر به الى الشيخ، وأخذوا بخاطره
وصالحوه ونادوا بالأمان . . . ولما رجع الشيخ الدردير الى منزله
حضر اليه ابراهيم بك الوالى وأخذ بخاطره أيضاً، وكذلك ابراهيم
بك الكبير، وكتبخدا الجاويشية . »

غير أن الحوادث السياسية التي وقعت في ذلك الوقت حالت
دون استمرار سى أهل مصر نحو إصلاح نظام الحكم بأنفسهم،
وذلك أن السلطان أرسل عند ذلك جيشاً لمعاينة المفسدين في
زعمه . فامتدح أهل مصر وتركوا ما كانوا فيه من مسي ظناً
منهم أن السلطان كفيل لهم بإزالة المظالم وإصلاح الأمور . وبقى
جيش السلطان في مصر قليلاً، ثم دعته الدواعى الى مغادرة البلاد
فصاد الأمر الى ما كان عليه من عبث مراد وأتباعه، وعاد الناس

أبى الذهب . وشهد أهل مصر في أيام هذين الحاكمين الضميفين
تغيراً في نظام الحكم ونمط السياسة، وأخذت شوكة الدولة تتجه
نحو جوانب الناس تمزجهم وتؤذيهم وتفسد عليهم أحوال حياتهم،
وما كان عهدهم بشوكة الدولة أن تكون أداة أذى لهم . فان الأمراء
المصريين كانوا منذ القدم إذا تشاحنوا كان تشاحنهم فيما بينهم،
وإذا اعتدى بعضهم فانما كان يمتدى على بعض، وإذا غضبوا مالا
أو سفكوا دماً فانما كان الحزب الغالب منهم ينصب مال الحزب
الغلوب، وسفك المتصرون منهم دماء اتباع الحزب المخدول .
وقديماً تشاحن الأحزاب على الحكم وتنافسوا على السلطة، وما
كان بأهل مصر بأس من ذلك، إذ كانوا في كل هذه الحركات يعزل
عن الأذى . دماؤهم محفوظة، وأموالهم محرمة، وأعراضهم مقدسة؛
وأما منذ تولى أمر الحكم ابراهيم ومراد، فقد تغيرت الحال،
وخرقت الحدود، وإذا بجنود الدولة تفسد بالناس، وتنتهك
حرماتهم، فلم يرضهم ذلك، بل احتجوا وشكوا، ثم محرکوا
واضطربوا، وكان اضطرابهم ذلك، قيل أن يتحرك ضمب فرنساً
في ثورته الكبرى بنحو أربع سنوات .

قال صاحب « عجائب الآثار » في حوادث سنة مائتين والف
للحجرة: أى في سنة الف وسبعمائة وخمس وثمانين للميلاد ما يأتى :

« وفي صبحه (يوم الجمعة) ثارت جماعة من أهالى الحسينية
بسبب ما حصل في أمسه من حسين بك (تابع مراد بك)
وحضروا الى الجامع الأزهر ومعه طبول . والتفت عليهم جماعة
من أوباش العامة والجميدية، وبأيديهم نبايت ومساق، وذهبوا
الى الشيخ الدردير، فونسهم وساعدتم بالكلام وقال لهم: أنا
معم، نخرجوا من نواحى الجامع وقلوا أبوابه، وصعد منهم
طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول، وانتشروا
بالأسواق في حالة منكرة، وأغلقوا الحوانيت، وقال لهم الشيخ
الدردير: (في غد نجتمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر
القديعة، وأركب معكم ونهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ونموت
شهداء أو ينصرنا الله عليهم) فلما كان بعد المغرب حضر سليم
أغامستحفظان، ومحمد كتبخدا أرثود الخلقى كتبخدا ابراهيم بك
وجلسوا في النورية، ثم ذهبوا الى الشيخ الدردير وتكلموا معه،
وخافوا من تضاعف الحالة، وقالوا للشيخ: (أ. أ. كتب لنا قاعة